مصطفى بوقدور*

سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي

قراءة في منطق السلطة الافتراضية**

ترمي هذه الدراسة إلى طلب استشكال سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي من زاويتين اثنتين، الآليات والمآلات، وتقف على منطق سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي ونمط اشتغاله، وانعكاساته على الكيانات المعلوماتية، تحليلًا لمستوياتها، وتفكيكًا لتلازمها العلائقي بين الخطاب والفضاء المعلوماتي. وتتمظهر الآليات في شكلين: آلية الدمج بين الوسيط والرسالة، وآلية إنتاج المعنى في الفضاء المعلوماتي. وللآليتين أثران يناقشهما البحث، هما اختفاء/ تحوّل السلطة من حال السلطة المتعينة إلى حال السلطة الدورانية اللامتعينة، وتفكيك العالم الاجتماعي والتهامه على حساب توسيع الوسط التكنولوجي. وتقف الدراسة على أهم النتائج المترتبة عن تماهي الخطاب بمنطق الفضاء المعلوماتي. ويمكن التمييز بين مآلات تخص بناء الخطاب ذاته، ومآلات تخص منتجي الخطاب.

بناءً على هذا الفهم الأنطولوجي لمقولتي السلطة والخطاب في الفضاء المعلوماتي، يسعى الباحث إلى طلب الاستشكال الآتي: كيف يعمل الخطاب في الفضاء المعلوماتي على إنتاج نمط سلطته؟ وما آليات اشتغاله؟ وما هي حدود القلب الأنطولوجي للسلطة في الفضاء المعلوماتي؟ وبناءً على هذا الاستشكال، يهدف البحث إلى فك الآليات التي ينتظم بها الفعل والممارسة التكنواجتماعية (التكنولوجيا/ الإنسان/ الجماعة) في الفضاء المعلوماتي وما يترتب عنها من مآلات على مستوى بناء المعنى وهوية الذات في تعالقهما بممارسة السلطة، إن على وجه السيطرة والتسلط (العنف المادي)، أو على وجه الخضوع الطوعي (العنف الرمزي).

تتجلى أهمية الدراسة في كونها محاولة لفهم الآليات التي يشتغل بها الفضاء المعلوماتي، ونبشًا في المآلات المترتبة عن نمط اشتغال هذا الفضاء وتداعياته على الذات الإنسانية، وطبيعة العلاقات المجتمعية الافتراضية.

---

* باحث في التواصل والتنمية، أستاذ الفلسفة، أكاديمية وجدة – المغرب.

** في الأصل ورقة قُدّمت إلى المؤتمر الدولي الثالث في موضوع: **الكتابة والسلطة**. وقد نظمت المؤتمر جامعة المولى إسماعيل، مكناس، والكلية المتعددة التخصصات، الرشيدية، المغرب، في ١٢ – ١٤ آذار/ مارس ٢٠١٤.

ليست المؤسسات الاجتماعية الكلاسيكية فقط هي التي تحتكر السلطة وتنزع إلى عملية ضبط الخطاب وصناعته على مقاسات نمطية، وبأهداف أيديولوجية ظاهرة وباطنة، بل إن مؤسسات الاتصال والإعلام أيضًا – وخاصة بعد الطفرة المعلوماتية وما أحدثته من تغيرات جذرية على مستوى الوعي والفعل الإنسانين – تمارس أشكالًا من الهيمنة المختلفة على الخطاب، بعدما عملت على حوسبته ورقمنته وتشبيكه.

وإذا كان المجتمع بسلطاته يمارس نوعًا من المراقبة وإعادة الضبط والتعديل المستمر للخطاب، حيث يظل إنتاجه خاضعًا لضوابط اجتماعية صارمة، فإن عملية ضبطه صارت، بعدما أضحى تقنية متطورة من خلال تكنولوجيا الاتصالات المعاصرة، تتخذ بدورها صورًا جديدة تقذف به إلى مآلات متعددة تتأرجح بين حضور السلطة وغيابها، فتشخص تارة في شكل قوة تنقلب إلى عنف مادي، وتختفي معالم مسرحها وتنقلب إلى عنف رمزي تارة أخرى.

هنا، لا يُنظر إلى الخطاب باعتباره جملة الأقوال المنظمة، وإنما باعتبار أنه، كما يقول برنار هنري ليفي في إطار قراءته لأعمال فوكو، «شيء بين الأشياء، وهو ككل الأشياء موضوع صراع من أجل الحصول على السلطة»[١]؛ فالخطاب يُنظر إليه بوصفه جملة الممارسات الإنسانية ضمن حقل له فاعلوه ورهاناته ورؤوس أمواله، والفاعل المهيمن على رؤوس الأموال هو الفاعل القادر على الظفر برهانات الحقل، ومن ثم التحكم في مختلف الإجراءات والآليات[٢] التي يقيمها المجتمع والذات، لمراقبة الخطاب، والتي تهدف إلى الحد من سلطته، وممّا يثيره من مخاوف وأخطار[٣].

يحتفظ الخطاب في الفضاء الافتراضي بآليات الضبط ذاتها، لكن بطابع يطغى عليه التداخل واللاتحديد والترابط والانفصال وإخفاء الأصول والمرجعية والاستبدال. لذلك، يُعيد الفضاء المعلوماتي بناء هوية الخطاب وفق منطقه الترابطي والتشعبي، حيث يُلغي الحدود الفاصلة بين المرسل والمتلقي والمؤلف والقارئ ومحتوى الخطاب وسياق الخطاب والمعنى واللامعنى، وهو ما يترتب عنه تحول الفرد القارئ/ المؤلف المنعزل إلى شبكة عامة تنهار معها تلك الذات المتعالية التي تحقق وجودها من خلال امتلاك الأصل، كما ترتحل السلطة من وضعها الكلاسيكي الاستاتيكي إلى وضع جديد ديناميكي.

تتمركز هذه الآليات التي يشتغل بها الفضاء المعلوماتي في تزايد عملية الدمج بين الوسيط والرسالة، حيث تختفي كل البنى الثنائية والقطبية التي تبني التنظيم الاستدلالي للغة، وكل تمفصل محدد للمعنى، فيغدو الانتقال من مقام الإرسال إلى مقام التلقي نقطة بلا تعيين. وهنا تختفي/ تتحول السلطة من حال السلطة المتعينة إلى حال السلطة الدورانية اللامتعينة، أو قُل لعبة السلطة، لكن من دون تجاوز الوضع الوجودي الكلاسيكي الفاصل بين كيان سائد وآخر مسود.

إن الدمج العضوي بين الوسيط والرسالة يحيل إلى قلب مقامات السلطة. وضمن عملية القلب المتتالية يكمن سر محايثة السلطة للخطاب، فيعمل السائد على محو مسرح السلطة، أو يعمل على استبدالها إما بادعاء دوران السلطة، وإما بمبدأ أنت مصدر السلطة.

---

(١) ميشيل فوكو، **نظام الخطاب**، ترجمة محمد سبيلا، ط ٢ (بيروت: دار التنوير، ٢٠٠٧)، ص ٤٩.

(٢) انظر أصناف الإجراءات التي تحد من فعالية الخطاب: المصدر نفسه، ص ١١-١٩.

(٣) جون ستروك، **البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا**، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة؛ ٢٠٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٦)، ص ١٠٥-١٠٦.

بناءً على المنطلقات السابقة، نود في هذه الدراسة البحثية طلب الاستشكال الآتي: **كيف يعمل الخطاب في الفضاء المعلوماتي على إنتاج نمط سلطته؟ وما آليات اشتغاله؟ وما هي حدود القلب الأنطولوجي للسلطة في الفضاء المعلوماتي؟**

وقبل المضي بهذا الاستشكال إلى مبتغاه، نأخذ بمسلّمتين اثنتين: **الأولى** هي مسلّمة أن **الرسالة هي الوسيط**، أي أن أهمية الوسيط أضحت أكثر أهمية من الرسالة أو محتواها، بل ومن الخطاب ذاته[٤]. **والثانية** هي مسلّمة **التلازم بين وسائط الاتصال وأشكال السلطة**، فالتطورات التكنولوجية، وخاصة تكنولوجيا الاتصال، غالبًا ما تُنتج أنماطًا وأشكالًا خاصة من السلطة، لكن من دون الوقوع في الحتمية التكنولوجية المتعالية عن التاريخ والفعل الإنساني[٥].

سلطة الخطاب: من الألسنية إلى الفضاء المعلوماتي

ليس الخطاب مجرد معرفة علمية خالصة[٦] أو أداة في يد السلطة أو انعكاس لها، وإنما يشكل في حد ذاته سلطة، لها استراتيجياتها في الهيمنة والسيطرة والقلب. وتتحول السلطة اليوم إلى تقنية خطابية تكسر فيه اللغة «إملاء العيان المباشر وتنظم شواش (Chaos) الإحساسات المتنوعة للأشياء القابلة للمطابقة»[٧].

---

(٤) هنا نود استثمار أطروحة مارشال مكلوهان، وعلى وجه الخصوص كتابه: **الرسالة هي الوسيط**.

(٥) بالنظر إلى العلاقة الثلاثية بين تكنولوجيا الاتصال والخطاب وأشكال السلطة، يمكن القول إن هناك علاقة تلازمية بين تكنولوجيا الاتصال وأشكال السلطة؛ فعلى سبيل الحصر، يُقابل المرحلة الشفوية من تاريخ الإنسانية سلطة السحرة والكهنة والشامان، حيث عملت هذه الفئة على **احتكار تأويل** الخطاب من خلال ابتكار لغة خاصة، ومن ثمة احتكار السلطة والوقوع في الاستبداد. ويقابل مرحلة الكتابة، بداية من ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد، من جهة سلطة الكتبة المتمثّلة في احتكار مهنة الكتابة واحتكار سلطة التأويل (وخير مثال على ذلك، سلطة الكاتب في النظام الفرعوني القديم)، ومن جهة ثانية مهمة انتشار الكتابة في زعزعة السلطة وبروز العقلانية والديمقراطية (وخير مثال على ذلك، بروز العقلانية اليونانية ما بين القرنين ٨ و ٤ قبل الميلاد مع انتشار الكتابة، وما ترتب عنها من ظهور ثقافة مشتركة ترتبط بالمصالح العامة، والتي كانت سببًا في ظهور النظام الديمقراطي). والمرحلتان كلتاهما تعكسان نوعًا من **التأويل النخبوي** للخطاب ينتج معه شكل من أشكال السلطة الاحتكارية أو سلطة النخبة.

ويقابل مرحلة اختراع المطبعة مع غوتنبرغ سنة ١٤٥٢، البدايات الأولى **للتأويل الانتشاري**، حيث عملت المطبعة، باعتبارها وسيلة اتصال، على نشر الحقيقة بين الناس من دون الاقتصار على فئة بعينها، ولم تشترط فقط إلّا القدرة على القراءة والفهم (وخير مثال على هذا ما عقب انتشار الكتاب المقدس بأوروبا من ثورات دينية وإصلاح ديني أعاد النظر في الحقيقة الدينية المقدسة لدى فئات عريضة من المجتمع).

أما أهم مرحلة من مراحل تطور تكنولوجيا الاتصال، فهي المرحلة الحديثة والمعاصرة التي تقابلها مرحلة الاتصال الجماهيري، التي عرفت أوجها مع اختراع الراديو والتلفزيون والتلفون والإنترنت، وهنا ستنتقل سلطة التأويل من حال الاحتكار والانتشار إلى حال **التأويل الجماهيري**، ومن ثمة بروز سلطة الجماهير، لكن ستقابل السلطة هذا التحول في التأويل بقوة شديدة تتحول فيها السلطة إلى سلطان يمارس سلطته بمختلف أشكال العنف المادي والرمزي.

وهنا لا ننظر إلى هذه المراحل التاريخية نظرة خطية تعاقبية، وإنما نظرة لا خطية، حيث يمكنها أن تجتمع كما يمكنها أن تفترق. وليس الربط بين هذين الطرفين من قبيل الربط التلازمي الإطلاقي، بل الربط القادر على توجيه استعمال التكنولوجيا إلى غايات أخرى غير الغايات التي رُسمت لها من قبل.

(٦) يرى فوكو أنه «**لا بد من انتزاع الكلمات من كل أثوابها المعتادة، ووضعها ثانية في العراء خارج قوالبها. وحرمان الملفوظ من متكئه الدلالي**». انظر من مقدمة الترجمة: ميشيل فوكو، **الكلمات والأشياء**، ترجمة مطاع صفدي [وآخرون]؛ مراجعة جورج زيناتي [وآخرون] (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠)، ص ١٠.

(٧) يورغن هابرماس، **العلم والتقنية كأيديولوجيا**، ترجمة حسن صقر (كولونيا، ألمانيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٣)، ص ٢٢.

وتتأبد السيطرة «ليس فقط بواسطة التقنية، وإنما كتقنية، تقدم للسلطة السياسية المتنامية – التي تضم مجالات الثقافة كلها – الشرعية الكبرى»[٨].

لقد أضحت السلطة «هي الاسم الذي نطلقه على وضعية استراتيجية معقدة في مجتمع معيّن، تنتج الواقع في غليانه وتعدده، محايثة لا متعالية، ليست جوهرًا مطلقًا، بل أشكال متعددة من السلط»[٩]. فعندما ترتبط السلطة بالتكنولوجيا، فإنها تحول الخطاب إلى تكنولوجيا خطابية، ويغدو هذا التزاوج الثلاثي قوة هائلة على التنميط وقلب الواقع وتزييفه. **فكيف يشتغل هذا الثلاثي (الخطاب والتكنولوجيا والسلطة) في إنتاج أفعال الهيمنة والسيطرة؟**

الفضاء المعلوماتي والخطاب الفائق

برز الفضاء المعلوماتي منذ عقود قليلة كنتيجة طبيعية للتطور الهائل في نظم الاتصالات والمعلومات، وتشبيك العالم وربطه لاسلكيًا. ومع تزايد الحاجة إليه، انتقلت الأنشطة الإنسانية على اختلافها إلى هذا الفضاء المتشابك، وأضحت في طياته وطبقاته تتخذ أشكالًا وكيانات متعددة.

صيرورة التحولات التكنولوجية: خضوع للحتميات وآفاق للفعل

أحدثت الثورة الرقمية ترابطًا وثيقًا في شتى مجالات العمل، ومرد هذا الترابط يرجع في الأصل إلى عقود طويلة خلت، شملت الربط المادي الكلاسيكي (الطرق والسكك الحديد ووسائل النقل المختلفة)، كما شملت الربط اللامادي مع الانفجار الأخير لتكنولوجيا الاتصال والمعلومات (الطرق السيارة للمعلومات، والتدفق المتواصل للبتّات (Bits) الإلكترونية). وسيقود هذا التحول دول العالم، كما رصد ذلك مانويل كاستلس، إلى عصر المعلومات أو الشبكات الذي سيولّد أنماطًا جديدة من الصراع ذات طابع معرفي، لأن المواجهة اليوم في العالم تجري بين منطق الهوية والمنطق المعلوماتي المفجر للصبيب الهائل من المعلومات، والمتجه إلى السيطرة على جميع ما يجري في العالم، بفضل مكاسب تقنيات المعرفة الجديدة[١٠]. لذلك، يتحدد الصراع في عصر المعلومات والشبكات عند كاستلس بين منطق الهوية والمنطق المعلوماتي المنفلت والمنفجر، لكنه يحتوي على مظاهر معقدة، من بينها صراع المعلومات والهويات والثقافات[١١].

لم يَعد الإنسان قادرًا في القرن الواحد والعشرين على الاستغناء عن كثير من مكاسب التكنولوجيا الحديثة ومنجزاتها[١٢]. وهذا الافتقار إلى التكنولوجيا لم يقتصر على مجال دون آخر، وإنما شمل أيضًا جميع مجالات

(٨) في إطار قراءة هابرماس لماركوز. انظر: المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٩) عبد السلام بنعبد العالي: **الفلسفة فنًا للعيش** (الدار البيضاء: دار توبقال، ٢٠١٢)، ص١٠١، و**الفكر في عصر التقنية** (بيروت؛ الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ٢٠٠٠)، ص٦٢.

(10) Manuel Castells, *L'Ere de l'information*, 3 vols. (Paris: Fayard, 1998-1999), vol. 2: *Le Pouvoir de l'identité*, p. 16.

(١١) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، **تقرير المعرفة العربي للعام ٢٠٠٩ : نحو تواصل معرفي منتج** (دبي: البرنامج، ٢٠٠٩)، ص ٤٠.

(١٢) كمال عبد اللطيف، **المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي: تقاطعات ورهانات** (بيروت؛ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢)، ص ٥٩.

الحياة (الأسواق المالية العالمية، الاقتصادات الوطنية، منظومات الإنذار المبكر، التكنولوجيا الحيوية، حوامل التخزين المعرفي...)[١٣].

تضعنا التصورات السابقة أمام حقيقة واضحة هي أن التقنية أصبحت اليوم مظهرًا من مظاهر الوجود، وغدا عصرنا «عصر التقنية» بالفعل، وشمل مفعول هذه التقنية أنظمة الحياة والمعرفة، بحيث لا يمكن فصل المعرفة عن القوة، لما تتيحه للذين ينخرطون فيها من تملك وسائل جيدة للسيطرة على العالم[١٤]. ويترتب عن تحكم التكنولوجيا في الحياة الإنسانية مظاهر متعددة تتجلى في توحيد أنماط العيش والتفكير، وتصنيع النشاط التقني والثقافي والسياحي، واجتثاث المكان والزمان، وفقدان الشعور بالقرب، والاستهلاك الزائد، والتخطيط والبرمجة، واستنفاد الثروات الطبيعية [١٥].

وتُعَدّ اليوم تكنولوجيا «الإنترنت القوة الدافعة لحركة واسعة من التغيرات الاجتماعية والتاريخية التي تمر بها المجتمعات خلال هذه العقود، وربما حتى الحضارة. فهذه التكنولوجيا ظاهرة فريدة من نوعها، وتعرب عن حركة مذهلة من التحولات الاجتماعية والثقافية، ترتبط بتشبيك الحياة الاجتماعية وحوسبتها. وتنعكس آثارها على جميع مجالات التنظيم الاجتماعي»[١٦]. وستغدو الحياة اليومية للأفراد المنعزلين، بسبب الاتصالات الإلكترونية المنتشرة والفورية، متشابكة، كما سيتحقق بسببها وعي عالمي شامل، يشكل بعدًا عاطفيًا أوليًا، يمكّن البشر في جميع أنحاء العالم في اللحظات غير العادية، من مشاركة المشاعر نفسها في لحظة واحدة[١٧]. وفي الحقيقة، لا يمكن مشاطرة رؤية عالم الاجتماع الكندي سيرج بروكس الحالمة والنابعة من الإيمان بالحتمية التكنولوجية وفعلها السحري العَجيب، لكن من المؤكد أن هذا التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصالات، وحوسبة الفعل الاجتماعي، سيدفع إلى بروز فضاء جديد مواز للفضاء المادي المحسوس، ومتصف بخصوصيات جديدة تتيح آفاقًا غير معهودة للفعل الإنساني.

خصوصيات الفضاء المعلوماتي

يُعَد الفضاء المعلوماتي بمختلف مكوناته من أهم الوسائل الأساسية في الفترة الراهنة لتبادل المعلومات والأفكار، وحقلًا لصراعات متعددة سياسية وثقافية، وحتى حربية (الحرب الإلكترونية)، بين الفاعلين على اختلاف مشاربهم لكسب رهاناته، إلى درجة أن قوة الإعلام الجديد والوسائل المعلوماتية، كما يقول نبيل علي، «ستكشف في نهاية الألفية الثانية عن العورات الاجتماعية ومواضع الخلل بصورة يتعذر معها التستر عليها مهما بلغت قوة وسائل الإعلام الرسمي»[١٨].

(١٣) انظر: المصدر نفسه، ص ٦٢؛ إياد شاكر البكري، **تقنيات الاتصال بين زمنين** (عمان، الأردن: دار الشروق، ٢٠٠٣)، ص ١٤٢-١٤٣، و Castells, p.113.

(١٤) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ص ٤٥-٤٦.

(١٥) عبد اللطيف، ص ٦٢.

(16) Serge Proulx, «Mondialisation et mouvements d'affirmation identitaire: Expressions possibles de la société civile internationale,» dans: Francis Jauréguiberry et Serge Proulx, eds., *Internet, nouvel espace citoyen?*, logiques sociales (Paris; Budapest; Torino: L'Harmattan, 2003), pp. 22-23.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٩-٢٠.

(١٨) نبيل علي، **العرب وعصر المعلومات**، عالم المعرفة؛ ١٨٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٤)، ص ٢٥٣- ٢٥٤. وقد تحققت فعلًا رؤيا نبيل علي في العقد الثاني من الألفية الثالثة في «بلدان الربيع العربي».

وتُعتبر الفضاءات المعلوماتية كيانات مرئية متحيزة تَصِف بأسلوب رمزي/ صوري جميع المعلومات الموجودة في نظم معالجة المعلومات العولمية، وعبر مسارات جرى توفيرها بواسطة شبكات الاتصال الرقمي الحالية والمستقبلية، وتوفر إمكانية الوجود المصاحب والتفاعل الآني بين مجموعة من المستخدمين، مع السماح بعمليتي الإدخال والإخراج من/ إلى جميع الحواس البشرية، مع إتاحة الفرصة أمام عمليات محاكاة للواقع التقليدي والمتخيل، وتحقيق تكامل تام مع جُلّ الأدوات الذكية والبيئات التي أرساها الإنسان على الأرض الواقع الذي يقطن فيه[١٩]. وتُوصَف أيضًا بأنها عبارة عن مجالات زمانية أو بنيوية لحُزم المعلومـات التي توفرها تقنيات الاتصال والمعلوماتية على حد سواء. وتتطلب الوسائط والبرمجيات المستخدمة في توليد أمكنة الفضاء المعلوماتي قيام المصمم بسلسلة من عمليات البرمجة المعقدة التي تتوجه صوب خصائص وسلوكيات السطح البيئي الذي يُشخص بين المستخدم وأدواته المعلوماتية[٢٠]. ويقوم الفضاء المعلوماتي على دعامتين اثنتين: **الأولى** عبارة عن عوالم افتراضية تتألف مادتها من بيئة معلوماتية ذات فضاءٍ ثلاثي الأبعاد، تمكّن المستخدم من التفاعل معها والانتقال بين مساراتها بلا قيود. **والثانية** تتألف من شبكة المعلومات التي تربط بين العقد المعلوماتية التي تلم شتات جميع الحواسيب[٢١].

الفضاء المعلوماتي إذًا هو ذلك الفضاء الذي يستوطنه نسيج متشعب شبكي من عُقد الاتصال التي تغطي جميع مجالات الحياة الإنسانية، وتشكل شبكة «الويب» تجسيدًا فعليًا للفضاء المعلوماتي بجغرافيته الافتراضية المشاعة، وتترسخ فيه معالم هندسة جديدة تقوم على التجريدية واللاخطية والمُلك المشاع والتعدد والتنوع واللاتراتبية.

يتسم هذا الفضاء المستحدث بجملة من الخصائص، أهمها تعدد أبعاده، وابتعاده عن نمط الفضاء الإقليدي، وموازاته للفضاء الواقعي، واعتباره فضاءً للتواصل والاتصال يوفّر إمكانية الحضور المشترك والتفاعل الآني بين المستخدمين. ويُجمع أغلب الدارسين على أن الفضاء المعلوماتي **نظام معقد**، والتعقيد خاصيّة لا تتحقق إلا بالتفاعلية والديناميكية واللاانعكاسية واللاخطية والتنوع والتعدد[٢٢].

ويقابل خصائص نظام التعقيد[٢٣] في هذا الفضاء مواصفات إجرائية؛ إذ يقابل **التفاعل** حجم التأثيرات المتبادلة بين مكوّنات العملية الاتصالية، حيث يختلف السلوك الكلي عن حاصل سلوك العناصر المكوّنة له، ويتجلى التفاعل في خاصية التغذية الراجعة[٢٤]، من خلال إظهار علامات الاستيعاب والتكيف مع الوضع[٢٥]. ويقابل **التنوع والتعدد** مفهوم الوفرة والإفراط المعلوماتي (فيضان المعلومات) وحمل المعلومات

(١٩) حسن مظفر الرزو، **الفضاء المعلوماتي**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨)، ص ١٧٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٧٩–١٨٠. الأمكنة المعلوماتية، هي مواقع «الويب»، ومواقع الدردشة، والمواقع الاجتماعية والبيئات الافتراضية الثلاثية الأبعاد...

(٢١) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٢٢) نبيل علي ونادية حجازي، **الفجوة الرقمية: رؤية عربية لمجتمع المعرفة**، عالم المعرفة؛ ٣١٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٥)، ص ٢٢٨ – ٢٣٢.

(٢٣) انظر خصائص التعقد في: المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٢٥) علي، ص ١٠٣. (سرّعت البيئة الجديدة للإنترنت من عملية التفاعل، خاصة بعد النقلة النوعية لتكنولوجيا المعلومات من الطور السلبي الأحادي الاتجاه، إلى الطور التجاوبي الثنائي الاتجاه).

الزائد والتشظي المعلوماتي [٢٦]، في حين يقابل **الديناميكية** تبادل المقامات بين القائم بالاتصال والمتلقي من دون أن ينحصر في الثنائية المحدودة والجماهيرية الخطية، وإنما في إفراط التعددية، من الواحد والاثنين والجماعة في اتجاه جدلي يُحمل على التراكم والبطء والتسارع والاستمرارية والتقطع والليونة والخشونة، نحو الواحد والاثنين والجماعة العشوائية والانتقائية والمنتظمة، فلا وجود لمسار خطي تعرفه الرسالة الاتصالية من مرسل إلى مستقبل. وتقابل **اللاخطية** عدم إمكانية التنبؤ بمسار حجم الرسالة الاتصالية أو التحكم في حجم تأثيرها، كما أنها تتخذ وضعيات متعددة بصورة لا متتالية ولا متعاقبة، نظرًا إلى قابليتها للتعديل والتغيير المستمر. وأخيرًا، تقابل **اللاانعكاسية** عدم ارتداد الرسالة الإعلامية الاتصالية في الفضاء المعلوماتي إلى حالتها الأولى، لذلك توصف الرسالة في الفضاء المعلوماتي بأنها رسالة بلا ذاكرة تاريخية، ولا يمكن التكهن بلحظة انقلابها أو ثورانها.

يتأسس البناء العام للفضاء المعلوماتي على المعلومات باعتبارها تدفقات رقمية، يتفاعل الإنسان معها بشكل عضوي، حيث يصير الفضاء المعلوماتي امتدادًا للجسد الإنساني. ويعتقد عالِم الاجتماع الأميركي سكوت لاش أن الإنسان في ظل التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال يتعامل مع النظم التقنية في شكل تفاعل عضوي – تقني. يقول لاش: «لا أستطيع أن أعمل من دون الهاتف النقال أو الحاسوب المحمول، أو الأجهزة الرقمية الأخرى، إنني أشتغل مثل (**بنية إنسان– آلة**). إنه شكل تكنولوجي للحياة الطبيعية»[٢٧]. ونتيجة لذلك، يعتقد لاش أن أشكال الحياة ستحمل خصائص جديدة، وأهم هذه الخصائص تسطيح أشكال الحياة ولاخطّيتها، وتفاعل كل شيء من خلال وسائل الاتصال التقنية.

حاصل القول أن هذا الفضاء المعلوماتي المتأسس على التدفقات غير المنقطعة للبيانات والمعلومات، سيتجلى وجوده في شكل كيانات رقمية مختلفة في هندستها وخصوصيتها، تتفرع إلى مجموعة من صفحات الاستعراض والمواقع الإلكترونية القائمة على التشعب والترابط الدائم، والتي تُعَد لغة البرمجيات فيها الأصل العميق لماهيتها.

خصوصيات الكيانات المعلوماتية في الفضاء المعلوماتي

النص الفائق في الفضاء المعلوماتي

أحدثت الاتصالات الإلكترونية تغيرًا جذريًا في شكل تنظيم المعرفة الإنسانية، وحَلّت النصوص الفائقة المحملة بفرط المعلومات محل الطرق البسيطة (التكنولوجيا الطباعية). وقد نقلت تكنولوجيا الافتراضي الإنسان من نمط اتصالي قائم على تكنولوجيا الطباعة إلى نمط جديد يقوم على الرقمنة والتشعبية في **فضاء التدفقات** (Espace des flux)، محوّلًا العالم إلى مجتمع شبكي إلكتروني تقلصت فيه المسافات إلى حد الزوال، وصار المكان زمنًا لحظيًا. وتعاظمت عملية الترابط بين المحتويات الرقمية والكيانات الافتراضية لتشكل عالمًا جديدًا من الترابطات الفائقة، أو ربط الربط اللامتناهي، حيث يتم الحديث الآن في مجال

(٢٦) علي وحجازي، ص ٢٣٢– ٢٣٣.

(27) Scott Lash, «Technological Forms of Life,» *Theory, Culture and Society*, vol. 18 no. 1 (February 2001), p. 107.

الرقمية، على ما يسمى «**ترابط النص المترابط**»[٢٨]، وغدت بادئة «ربط» (Hyper) واللاصقة «شبكي» (Cyber) علامتين وجوديتين لكل كيان معلوماتي، وانتقلت النصوص من حالة النصوص الخطية المنغلقة إلى حالة النصوص المترابطة، ثم النصوص الشبكية المفتوحة، باعتبارها حقولًا لا حدود لها، تتوسع إلى ما لا نهاية، خالقة نصوصًا ثانوية وما وراء النصوص.

يُبرز جيرمي ريفكين الفروق الواضحة بين النصوص الفائقة والنصوص المطبوعة، ويرى أن الكتاب المطبوع ذو طبيعة مستقيمة ومقيدة وراسخة، وهو حصري بطبيعته وعلائقي في هيئته، له بداية وله نهاية، في حين أن النصوص الفائقة ترابطية، ويحتمل أن لا حدود لها، وليس لها بداية أو نهاية واضحتان، بل هناك نقطة بدء فقط يقوم المستخدمون من خلالها بالوصل بين المواد ذات العلاقة، وهي تعيد التشكل دائمًا ولا تتكامل أبدًا [٢٩]. لذلك، يعتقد ريفكين أن الكتاب المطبوع **منتوج**، في حين أن النص الفائق **معالجة**؛ الأول يقوم على الخطية ويلائم التملك الطويل المدى، أما الثاني فيتسم بالصفة السايبرية التي تم فيها استبدال مفاهيم التتابعية والسلبية بحقل كامل من الفعالية المستمرة والمتكاملة واللامتناهية، والتي تعيد تشكيل ذاتها بطريقة دائمة، وتكون الطريق الأمثل للوصول إليه لا على أساس التملك، بل على أساس الدخول اللحظي والآني[٣٠].

يبنى النص الفائق الافتراضي ويتشكل كبنية رقمية لا تحيل إلا إلى ذاتها، وككيان تمّحي أصوله وآثاره الأولى، ليغدو آلة من الآلات. لذلك، يرى بودريار أننا ما إن «نجلس أمام الشاشة حتى نتوقف عن إدراك النص بوصفه نصًا، إذ يتحول إلى صورة ويغادر هويته الأولى كنص... فالنصوص والصور والأفلام والخطابات وبرامج الحاسوب كلها إنتاجات لها بنية الآلة: فهي مُشَكّلة بشكل اصطناعي، والنصوص حافلة بالحشو الذي مرده إلى الإرادة الماكرة للآلة في الاستمرار في الاشتغال مهما كان الثمن، فهي من صنع وكلاء افتراضيين (أذكياء) لا يقومون سوى بعملية واحدة، هي البرمجة في حين تنفذ باقي العمليات بكيفية آلية (فالآلات لا تنتج سوى الآلات)، وهذا هو موضوع السيبرنطيقا، علم التحكم من الداخل في الصورة والنص والجسد، التحكم من الرحم عبر تحريك، وتسخير الرموز والخصائص الوراثية»[٣١].

ولعل أهم نتيجة للتحول الذي عرفته النصوص المعلوماتية السابحة، هي تقويض إحدى المميزات الرئيسية للوعي الطباعي، وهي فكرة مؤلف ذي شخصية واضحة يمتلك أفكاره؛ فالنص الفائق يصيب مفهوم التأليف التقليدي بالضبابية، لأن الوسيط الإلكتروني يقوم على الشمولية والارتباط بدل الحصرية والاستقلال، حيث تُطمس معالم الحدود الفاصلة بين مساهمات الأفراد عند الاستعمال، ويدأب المستخدمون على اقتطاع مواد أو إعادة دمجها أو تحريرها أو حذفها ونقلها وإرسالها من عقدة اتصال إلى أخرى بطريقة غير منقطعة. وعندما «يصبح هذا الكيان المعلوماتي جزءًا من سيرورة مفتوحة النهاية، تشمل جهات عدة، وموزعة عبر الزمان والمكان، بدل أن تكون منتوجًا متكاملًا لجهود خلّاقة لشخص واحد، يصبح حصر الملكية صعبًا أحيانًا»[٣٢].

---

(٢٨) انظر: سعيد يقطين، **من النص إلى النص المترابط: مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي** (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥).
(٢٩) جيريمي ريفكين، **عصر الوصول: الثقافة الجديدة للرأسمالية المفرطة**، ترجمة صباح صديق الدملوجي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩)، ص ٣٧٩.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٧٩.
(٣١) جان بودريار، **الفكر الجذري: أطروحة موت الواقع**، ترجمة منير الحجوجي وأحمد القصوار (الدار البيضاء: دار توبقال، ٢٠٠٦)، ص ٧٠-٧١.
(٣٢) ريفكين، ص ٣٨٠-٣٨١.

إن النص الفائق يأبى الملكية الشخصية، ويتعالى عنها، ليصير ملكية مشاعة بين المستخدمين، يتعاملون معه على أنه كيان خاضع للتعديل اللامتناهي إلى الدرجة التي يمّحي فيها الأصل، وتصير النسخة أصلًا، ويقود امّحاء خاصية الملكية الشخصية إلى ما يدعوه رولان بارت بـ«موت المؤلف».

يوضح الفيلسوف جان فرنسوا ليوتار وضع هذه الذات، فيقول: «إن الذات في الشبكات الإلكترونية للمجال السايبري لا تعتبر شيئًا... وليس من ذات هي جزيرة لوحدها. وكل منها تتواجد في نسيج من العلاقات... شابًا كان الشخص أم كهلًا، رجلًا أم امرأة، غنيًا أم فقيرًا، فهو يقع في نقاط عقدية لدوائر اتصالات محددة»(٣٣). وفي الحقيقة، تتعرض شخصية المؤلف في الفضاء المعلوماتي للانتهاك اللامتناهي، وتمّحي بفعل الاستنساخ المتكرر الذي يقترب من إزالة أثرها، لكنها لا تنعدم انعدامًا مطلقًا، بل تظل حاضرة في شكل ذات علائقية، لا تحيل إلى ما يحدد طابع هويتها، وإنما كذات متجاوزة لعزلتها وخصوصياتها، متشظيةٍ في عُقد اتصالية كثيرة. وترتب عن طمس الذات المنتجة للنص وإخفائها في ثنايا النسخ المتكرر، واختزال فعالية المستخدمين في النقل والتعديل وإعادة التعديل والإرسال أن «أصبحت المعالجة الرقمية للمعرفة والمعلومات بديلًا عن الإبداع. وأضحت المعرفة صناعة تعالج من خلالها البيانات الرقمية بواسطة أدوات ذكية تعاود ترتيب المفردات لتغيير المظهر، (...) تُوهم الإنسان المعاصر أن ما بيديه نتاج إبداعي جديد»(٣٤). وخلافًا لهذا التصور، نؤكد أن استثمار تقنيات الاتصالات الجديدة في إنتاج المعرفة وتوزيعها واستهلاكها، أعطى دفعة قوية لمضاعفة المعرفة الإنسانية أضعافًا كثيرة، إلى درجة أن خبراء المعلوماتية يتحدثون اليوم عمّا يسمّى الفيضان المعلوماتي.

هكذا، سواء أكان النص الفائق يحيل إلى اللامتناهي واللانقطاع، وغياب النهاية المطلقة، وامّحاء الحدود الفاصلة بين الأصل والنسخة، وصعوبة تحديد المِلْكية الشخصية، أم إلى الفاعلية والقدرة على الإبداع وفتح آفاق الكتابة، فإنه بكل تأكيد يحطم ثنائية المرسل والمتلقي، وأزال معالم تلك السلطة المنبثقة عن امتلاك الخطاب من قبل شخص بعينه. وفتح هذا الوضع المجال أمام إمكانية ظهور سلطة القارئ/ المؤلف.

الفضاء المعلوماتي وسلطة القارئ/ المؤلف

تسمح تكنولوجيا النص الفائق والشبكي بالسفر بين صفحات النصوص والانتقال السريع من نص إلى آخر بواسطة الروابط الفائقة. وتتعدد وضعيات عملية الاسترجاع أو الإبحار في الشبكة العنكبوتية بحسب الظروف وملامح القراء.

يقدم الباحث كروسني أربعة تصنيفات لأنواع الإبحار:

– الاسترجاع، ويستند إلى طريقة منهجية في البحث عن المعلومات انطلاقًا من هدف محدد؛

– الاستكشاف، ويتعرف القارئ إلى الروابط بين النصوص الفائقة؛

(33) Jean-François Lyotard, *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*, Translation from the French by Geoff Bennington and Brian Massumi; Foreword by Fredric Jameson, Theory and History of Literature; 10 (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1984), p. 15.

نقلًا عن: ريفكين، ص ٤٠٠.

(٣٤) الرزو، ص ٢٢٦.

– التعقب أو الرفرفة، وينتقل القارئ بين النصوص بحسب محاور اهتمام غير واضحة تمامًا في ذهنه.

– التجول أو التسكع، وهو تحول من نص إلى آخر من دون هدف معيّن[٣٥].

لا يؤدي الإبحار على «الويب» بالضرورة إلى بحث القارئ عن المعلومات بحثًا معمَّقًا، بل إنه يتراوح بين التعمق في البحث والانغماس والسطحية؛ فهو يعيش وضعية الضياع في الفضاء الإلكتروني (الفرط المعلوماتي)، ويسعى إلى التوفيق بين طريقة البحث وفق حاجته إلى المعلومات واستراتيجية قراءة النص الفائق للتعرف إلى المحتويات ومختلف أوجه الترابط[٣٦]. ولقد انعكست التحولات التي شملت النص الفائق – خاصة ديناميكيته – على عملية القراءة، وأتاحت للقارئ إمكانية التدخل لتغيير الجمل والفقرات وتغيير أماكنها وإعادة ترتيبها وإدخال تعليقات عليها، بل حتى تأليف أجزاء إضافية، وبذلك يتحول القارئ إلى مؤلف مشارك. يقول روجيه شارتيي: «إن الفرق الذي كان جَليًّا للعيان بين مؤلف النص وقارئ الكتاب، قد مُحي لفائدة واقع آخر، يتمثل في أن القارئ تحول إلى أحد العناصر للكتابة بأصوات عدة، أو على الأقل، يكون في وضعية تمكنه من تكوين نص جديد من خلال أجزاء يكون قد اقتطعها وأعاد تجميعها بكل حرية»[٣٧]. ولقد أدى التقارب بين وظيفة القارئ والمؤلف إلى ظهور مفهوم «القارئ/المؤلف»، ومعه تطرح مشكلة الملكية الفكرية.

ضمن سياق أنطولوجية العملية التواصلية، صارت الذات القارئة في بيئة النص الفائق، من جهة بمثابة «المستجوب والمجيب الآليين، والرامز وفكاك الرموز، والمرسل والمرسل إليه، حيث لم يَعد (أمام القارئ) أي آخر، كما لم تَعد هناك وجهة نهائية أو غاية أخيرة أو مقصدية خارجية. وكل ما في استطاعة (القارئ) هو إنتاج وإعادة إنتاج ذاته إلى ما لا نهاية»[٣٨]، أي إنها ذات تعيش نشوة الاتصال، من خلال انقسامها على نفسها بين مقام الإرسال والتلقي، وإنها، من جهة ثانية، طبقة خارجية للشاشة، حيث تربط المستخدم مع شاشة الحاسوب ومن ورائها النص الفائق علاقة تداخل جذري، وليس فقط علاقة تفاعلية[٣٩].

فتح الفضاء المعلوماتي الباب واسعًا أمام فعالية القارئ وتحوله إلى ذات منتجة، إلى درجة امّحاء الحدود الفاصلة بين المؤلف والقارئ، ولكنها في الوقت ذاته حولت هذه الذات المتشظية التائهة أمام الكَمِّ المفرط من المعلومات والنصوص، إلى ذات مُستلبة، غايتها إدامة الاتصال، وعدم ترك مسافة فاصلة بين الذات والموضوع، لتُعيد النظر في الموضوع وتنتقده. لذلك، يمكن القول إن الذات بافتقادها ملكة النقد والمسافة الفاصلة تكون قد سقطت في سلطة النص الفائق، وتحوّل وعي الذات المؤلفة القارئة إلى وعي مزيف ومقلوب.

---

(35) Hervé Le Crosnier, «L'Hypertexte en réseau: Repenser la bibliothèque,» *Bulletin des bibliothèques de France*, no. 2 (1995).

نقلًا عن: وحيد قدورة، **الاتصال العلمي والوصول الحر إلى المعلومات العلمية: الباحثون والمكتبات الجامعية العربية** (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٦)، ص ١٩٤– ١٩٥.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(37) Roger Chartier, «Du codex à l'écran: les Trajectoires de l'écrit,» *Solaris*, vol. 1 (1994).

نقلًا عن: قدورة، ص ١٩٤.

(٣٨) بودريار، **الفكر الجذري**، ص ٧١.

(٣٩) المصدر نفسه، ص٧١.

منطق سلطة الخطاب الافتراضي ومآلاته

يستمد الخطاب الافتراضي سلطته من منطق اشتغال الفضاء المعلوماتي، الذي يقوم بناؤه الداخلي على اللاانتظام في الهندسة، واللاخطية في الانتقال. **فما هي آليات سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي؟ وكيف ينتج الخطاب الافتراضي في الفضاء المعلوماتي سلطته؟**

آليات سلطة الخطاب الافتراضي في الفضاء المعلوماتي

يرتكز الفضاء المعلوماتي في تعامله مع الكيانات الرقمية على آليات الدمج والاحتواء بين المتضادات، والانتقال الدوراني، (المادي/ اللامادي، الواقع/ الخيال، المعنى/ اللامعنى، الرسالة/ الوسيط). **فكيف تتم عملية الاحتواء بين الوسيط والرسالة؟ وكيف يتم تعويم المعنى؟**

مفارقات الوسيط والرسالة والسلطة في الفضاء المعلوماتي

يحيل مفهوم الوسيط إلى مبدأ التغلب على المسافة خلال التواصل(٤٠). ويتضمن القاموس معنيين لكلمة وسيط (Medium): المعنى **الأول** يعتبر أن الوسيط يمثّل الوسيلة التي يعبّر بها عن شيء ما. أما المعنى **الثاني**، فيعتبر أن الوسيط يمثّل المادة البينية التي توصل عبرها الانطباعات إلى الحواس. وفي المعنى الأول يُنظر إلى الوسيط باعتباره مسهلًا، أما في المعنى الثاني فيُنظر إليه باعتباره محيلًا إلى فكرة الآثار التي يحدثها الوسيط في عملية التواصل، من خلال فكرة المادة البينية(٤١).

لم يعرف مفهوم الوسيط اهتمامًا واسعًا إلّا مع كتابات مارشال ماكلوهان المستقبلية قبل نهاية ستينيات القرن الماضي، وذلك من خلال مصنَّفيه المهمين اللذين أحدثا ثورة في أدبيات الاتصال، **الأول** هو كتابه **فهم وسائل الإعلام** (٤٢)، الذي اقترح فيه النظر إلى التقنيات الاتصالية على أنها «امتدادات» مكانية للحواس البشرية(٤٣). **والثاني** كتابه **الوسيط هو الرسالة** (٤٤)، وقد قدّم ماكلوهان فيه أهم مصطلحات العصر الإلكتروني الجديد ومفاهيمه، وأبعاد مرحلة ما بعد الحداثة في آفاق شبكات الحواسيب التي ستنتشر في مختلف بقاع المعمورة(٤٥). ويصرح ماكلوهان بأن الوسيط الاتصالي هو عين الرسالة، وبالتالي له أهمية كبيرة في مقابل الرسالة أو المحتوى ذاته، فالرسالة تذوب في الوسيط، وقيمتها مرهونة بطبيعة الوسيط الذي تمر منه.

---

(٤٠) يلاحَظ أن أغلب أسماء تقنيات الاتصال والإعلام في اللغات الأوروبية (التلفون والتلفزيون والتلغراف...)، يبدأ بالكلمة اليونانية «تلي» (tele)، ويُفهم من هذه البادئة أن الوسيط هو عملية تسهيل أو توصيل، أي جلب أحداث بعيدة إلى أماكن وجودنا. انظر: جون تومليسون، **العولمة والثقافة: تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان**، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة؛ ٣٥٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٨)، ص ٢٠٨- ٢٠٩.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

(42) Marshall McLuhan, *Understanding Media: The Extensions of Man*, Edited by W. Terrence Gordon, Critical ed. (Corte Madera, CA: Gingko Press, 2003), Original Work published in 1964.

(٤٣) تومليسون، ص ٢٠٨.

(44) Marshall McLuhan and Quentin Fiore, *The Medium Is the Massage: An Inventory of Effects*, Produced by Jerome Agel (Corte Madera, CA: Gingko Press, 1967).

(٤٥) علي محمد رحومة، **الانترنت والمنظومة التكنو - اجتماعية: بحث تحليلي في الآلية التقنية للانترنت ونمذجة منظومتها الاجتماعية**، سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٥٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥)، ص٢١٧.

ويستلزم اختلاط الوسيط بالرسالة الدمج بين المرسِل والمرسَل إليه، وهو ما يرسخ اختفاء كل البنى الثنائية والقطبية التي تبني التنظيم الاستدلالي للغة، وكَل تمفصل محدد للمعنى المستمد من شبكة الوظائف المشهورة عند جاكبسون (Jakobson). ويؤدي هذا الاختلاط بين مقامات الإرسال والاستقبال إلى عدم القدرة على تعيين نقطة الانطلاق، ولا يعود هناك مؤسسة للسلطة بين المرسل والمتلقي، فالسلطة غير محددة المصدر ولا يُعرف أصلها، وإنما هي دورة لا متناهية بين موقعي المسيطِر والمسيطَر عليه، لتختفي السلطة بمعناها الكلاسيكي؛ فدوران السلطة في الخطاب الشبكي يقضي علَى أي موضعة للمؤسسات والأقطاب، ولا تعود شرعيتها مستمدة من وضعية أنطولوجية وجودية هرمية، أي من الذي يعلو شأنًا أو يملك قوةً أكبر، وإنما من سلطة شبيهة بسلطة المُحَلِل النفسي، يستمدها من المُحَلَل نفسه. وضمن هذا الانتقال بين «المُحَلِل» و«المُحَلَل» تضيع السلطة وتتحول إلى تلاعب كامل، لكن من دون ضياع مفعولها. إن اصطناع قلب الأقطاب أو دمجها هو الخدعة العبقرية الكائنة في سر كل خطاب للتلاعب. لذلك، يكمن سر كل سلطة جديدة اليوم، وفي كل الميادين، في **محو مسرح السلطة**، وهو ما ينجم عنه هذه الغالبية الصامتة المميزة لعصرنا[٤٦].

ليس في إمكان المتأمل في هذه القوة المترتبة عن دمج الوسيط بالرسالة أو ذوبانها فيه، لدى كل من ماكلوهان وبودريار، أن ينسب هذه القوة في أي حال من الأحوال إلى هذه القدرة الدمجية السحرية، لأن السلطة ذاتها استراتيجيا معقدة تقوم على احتكارات رؤوس الأموال المجتمعية والرمزية في الواقع الإنساني الاجتماعي. لذا، فإن من أهم الانتقادات التي وجِّهت إلى نظرية الوسيط تركيزها الضيق على الوسيط بدلًا من الإطار السياسي والاقتصادي والثقافي الأوسع لعملية الاتصال، فهي تتجاهل الأيديولوجيات والقضايا الأساسية المتعلقة بالسلطة الاقتصادية والسياسية والمؤسسية[٤٧].

لم تقلل الانتقادات التي وجّهها السوسيولوجيون إلى نظرية الوسيط الماكلوهانية من أهمية وظيفة الوسيط في تحقيق التفاعل الاجتماعي، وإنما تزايدت أهمية الوسيط، خاصة بعد التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال التفاعلية. ويتجلى ذلك في العناية بتطوير الوسيط نفسه من حيث نوعيته وسرعته، والانتقال به من حال أحادية الاتصال إلى القطبية المتبادلة، إلى جانب كونه أداة التفاعل الفعلي بين المرسل والمتلقي، حيث أضحت «التفاعلية اليوم تتمثّل في الدور الذي تحوَّل المتلقي بمقتضاه إلى فاعل في وضع الأجندة»[٤٨]. ولكي نقترب من فهم تطور المقاربات النظرية المرتبطة بوسائل الإعلام والاتصال واستخداماتها، يمكن تأكيد ما ذهب إليه بروكس من كون علم الاجتماع الإعلامي رَحَّل أسئلته المعرفية، في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، من مركزية الوسيلة الإعلامية، أي من تأثيرها المركزي ذي الاتجاه الرأسي إلى مركزية المتلقي،

(٤٦) جان بودريار، **المصطنع والاصطناع**، ترجمة جوزيف عبد الله؛ مراجعة سعود المولى (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨)، ص٨٤-٨٥، الهامش.

(٤٧) تعرضت كتابات ماكلوهان لانتقادات متعددة من قبل جوناثان ميلر (١٩٧١)، ووليامز (١٩٧٤)، وفيرغسون في الفترة المعاصرة (١٩٩٠-١٩٩١)، كما شمل النقد آخرين من أنصار نظرية الوسيط المعاصرين، أمثال جوشوا ميرفيتز، خاصة من قبل سيلفرستون (١٩٩٤). انظر: J. Miller, *McLuhan* (London: Fontana, 1971), and Roger Silverstone, *Television and Everyday Life* (London; New York: Routledge), 1994.

(٤٨) عبد الله الزين الحيدري، «الإعلام الجديد: النظام والفوضى،» في: أبحاث المؤتمر الدولي: **الإعلام الجديد: تكنولوجيا جديدة.. لعالم جديد**، جامعة البحرين ٧-٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٩ ([مسقط]: منشورات جامعة البحرين، ٢٠٠٩)، ص ١٣١.

أي ماذا يفعل المتلقي بوسائل الاتصال والإعلام [٤٩]؛ فانتقال اهتمام الدراسات الاتصالية من الوسيط إلى الاهتمام بعملية التلقي مع ظهور تكنولوجيا الاتصال التفاعلية، سيمنح المتلقي إمكانية إنتاج العملية الاتصالية، من خلال فهم معنى الرسالة الاتصالية وبنائها، وهو ما سيعيد الاعتبار إلى سلطة المتلقي في بناء الخطاب وإعادة صوغه، لكن، **هل يعمل الفضاء المعلوماتي حقًّا على إنتاج المعنى، ويترك للمتلقي إمكانية فهمه وإعادة بنائه، أم إنه يعمل فقط على تعويم المعنى وجعله أكثر قابلية للانفلات؟**

حضور المعنى وغيابه في الفضاء المعلوماتي

تخضع عملية إنتاج المعنى لسيرورة إدراكية معقدة ترتبط أساسًا بالتصورات الأنطولوجية التي يتبنّاها الإنسان لوصف الكينونات الوجودية، وتوفير وصف شمولي وتفسير لكل ما هو كائن على أرض الواقع. لذلك، تُعتبر الأنطولوجيا أداة مرجعية توفر لنا فهمًا أعمق للواقع والكينونة. ويرتبط إنتاج المعنى في الفضاء المعلوماتي ارتباطًا وثيقًا بالأنطولوجيا المعلوماتية التي تمتاز بكونها آلية معالجة لكيانات تقليدية أو معلوماتية، تستمد وجودها من الارتباطات القائمة بينها وبين غيرها من المستويات الوجودية، لضمان تطبيقها على أرض الواقع التقليدي أو البيئة الرقمية عبر آليات معلوماتية يوظف فيها المنطق الرياضي المحوسب[٥٠].

تحكم علاقةَ الفضاء المعلوماتي، باعتباره وسيلة إعلامية جديدة، بالمعنى وإنتاجه ثلاثُ فرضيات أساسية[٥١]: إما أن ينتج المعنى، ولكنه لا يتمكن من تعويض الخسارة الحادة في الدلالة في جميع الميادين، وإما أن لا علاقة له بالدلالة، أي إنه خارج المعنى، وهذه فرضية شانون (Shannon) التي تعتبر دائرة الإعلام مجرد أداة أو وسيط تقني لا ينطوي على أي غائية في المعنى، وإما أن على العكس من ذلك، ثمة تلازم مطلق وضروري بين الاثنين بحيث يكون الإعلام مدمرًا للمعنى وللدلالة بصورة مباشرة أو مزيلًا لهما[٥٢]. لكن الفرضية الأخيرة تتعارض مع ما يُؤْمل من الإعلام بكونه إنتاج تداول مسرع للمعنى، أو فائض قيمة المعنى. ويتم تقديم الإعلام بوصفه منشئًا للتواصل. وحتى لو كان الهدر كبيرًا، فثمة إجماع عام يرى أن هناك على العموم فائضًا في المعنى يعاد توزيعه في جميع ثنايا المجتمع، وهذا الإجماع التواطئي هو ما يكوّن مصداقية الحداثة الغربية، والتي من دونها تنهار مصداقية التنظيم الاجتماعي[٥٣]. لذلك؛ يعتقد بودريار أن الإعلام وتكنولوجيا الاتصال يلتهمان مضامينهما بالذات، كما يلتهمان التنظيم الاجتماعي في الوقت نفسه، لسببين:

(٤٩) نصر الدين لعياضي، «الرهانات الإبستمولوجية والفلسفية للمنهج الكيفي: نحو آفاق جديدة لبحوث الإعلام والاتصال في المنطقة العربية،» في: **الإعلام الجديد: تكنولوجيا جديدة.. لعالم جديد**، ص ٢٠.

(٥٠) الرزو، ص ١٦٥.

(٥١) يتحدث جان بودريار في كتابه **المصطنع والاصطناع** عن الكيفية التي ينتج بها الإعلام معانيه ومضامينها، والطرق التي يلتهم بها هذه المعاني. وعلى الرغم من كونه يحلل هذه العلاقة في إطار محدود (الإعلام والمعنى)، فإنه سيتوسع في كتب أخرى، ويَحمل هذه العلاقة على نظم تكنولوجيا الافتراضي والفضاء السايبري عمومًا. لذلك، نعمل هنا على مجاوزة هذه العلاقة إلى الفضاء المعلوماتي على وجه العموم. انظر، على سبيل المثال: بودريار، **الفكر الجذري**.

(٥٢) بودريار، **المصطنع والاصطناع**، ص ١٤٧ – ١٤٨.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

– بدل أن يعمل الإعلام على خلق الاتصال، فإنه يستنفد ذاته في إخراج الاتصال، وبدل أن ينتج المعنى فإنه يستنفد ذاته في إخراج المعنى (سيرورة اصطناع)[٥٤]؛

– إن الميديا والإعلام المُلزم يتابعان، خلف هذا الإخراج المحتدم للاتصال، تفكيكًا للاجتماعي لا يقاوَم. وهكذا، يحوِّل الإعلام المَعنى والاجتماعي إلى نوع من سديم مكرس لا لمزيد من الإبداع، بل لإحداث القصور الشامل[٥٥].

إن النتيجة الأساسية التي تترتب عن ابتلاع تكنولوجيا الاتصال للمعنى، هي تحولها وحدها إلى حدث، وتصير هي نفسها الواقع، بعدما تبخرت المضامين والمعاني. لذلك، يطرح هذا الاندماج بين الوسيط والرسالة مشكلة العلاقات بين التفكير والسرعة، وهو ما يترتب عنه صعوبة بناء المعنى والأفكار. وهنا، يقر بورديو بأن الإعلام لا ينتج إلا «مفكرين على السريع، عندما يُعطى الحديث لمفكرين أُجبروا على أن يفكروا بسرعة متزايدة. والدافع الذي يدفع إلى قبول التفكير السريع في الإعلام، يرجع إلى أن الأفراد الذين يفكرون من خلال هذه التقنيات لا يفكرون إلّا من خلال **(الأفكار الشائعة)**، تلك الأفكار التي يتقبلها الجميع، تافهة مبتذلة، تقليدية، وسطحية شائعة ومشتركة، لكنها هي أيضًا تلك الأفكار التي عندما تتلقاها يكون قد تم قبولها بالفعل، بحيث لا يكون هناك محل لطرح مشكلة التلقي والإدراك بعد ذلك»[٥٦]. فالغاية الأساسية لعملية الاتصال في تكنولوجيا الاتصال المعاصرة هي **استيفاء عملية التلقي بشكل قبلي ولو على حساب التواصل ذاته**. إن المستخدم المتلقي يكون قد قام قبل أن تتم عملية الاتصال بفك رموز الرسالة، لأنها لا تصل إليه مشفرة بل حاملة للمعنى المتفجر والمؤقت من تلقاء ذاته، «فعندما ترسل «**فكرة شائعة**» فإن ذلك يعني أن الأمر قد حسم بالفعل؛ لقد تم حل المشكلة مقدمًا... **إنه عبارة عن نوع من الاتصال الذي لا يتضمن أي معنى آخر غير فعل الاتصال ذاته**»[٥٧]. ولهذا السبب، فلكي يحقق وسيط الاتصال غايته يتوجب عليه **أن يفقد الكثير من حدته**، ويتخلى عن كل ما من شأنه **أن يسبب الانقسام**، كما يتوجب عليه أن يلتزم أكثر بمراعاة «**ألا يصدم أحدًا**»[٥٨].

إن ملاحظة انبجاس المضامين، وابتلاع المعنى، وتلاشي الوسائطية نفسها، وانبجاس الاجتماعي في الجماهير[٥٩]، والتفكير على الجاهز، ولا تشفير الرسالة الإعلامية، وتحميلها فرط المعنى المنفجر في وجه المتلقي، لا تتحقق سلطته المكبلة لإمكانية النقد والرفض، إلا من خلال إعادة الشائع واصطناعه نسخًا متعددة إلى حد الابتذال، وهدم للمعنى إلى درجة الكارثة.

يظهر من خلال هذا التحليل أن تكنولوجيا الاتصال مصابة بالإحباط الذي يطاول السلطات جميعها (المؤسساتية والسياسية والوسائطية)؛ فهي ترى في نفسها سلطة متجاوزة لا تستطيع الاستمرار في الحياة

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٥٠.
(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٥٠–١٥١.
(٥٦) بيير بورديو، **عن التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول**، ترجمة وتقديم درويش الحلوجي (دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ٢٠٠٤)، ص ٦٥– ٦٦.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٦٦.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٩١.
(٥٩) بودريار، **المصطنع والاصطناع**، ص ١٥٢–١٥٣.

إلا بإعادة إنتاج مأزقها وفشلها. لذلك، أصبحت تكنولوجيا الاتصال تدور حول نفسها وتعيد إنتاج مأزقها الخاص في شكل فرجة أو تسلية، إذ لم يعد بمقدورها أن تجد لنفسها معنى خارجها، ولا أن تتجاوز كونها وسيطًا قادرًا على تسمية العالم وتقديمه كمعلومة ومنحه معنى(٦٠).

إن قدرة سلطة تكنولوجيا الاتصال تتجلى في تعويم المعنى، وحمل الدال على دلالة لا مرجع لها ولا سياق. هذه السلطة نابعة في الأصل من دمج الوسيط والرسالة التي جرى تناولها بقليل من التحليل في الفقرة السابقة، لكن الأكيد أن هناك عوامل متعددة تساهم في إنتاج نمط سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي، نكون هنا أشرنا فقط إلى بعضها، من دون أن ندعي الإلمام بها في كل مفارقاتها والتباساتها المتعلقة بقضية إنتاج الهيمنة والسيطرة.

مآلات سلطة الخطاب الافتراضي

إن الآليات التي يشتغل بها الخطاب في الفضاء المعلوماتي هي التي تفرض عليه أن يكون المحضن الخصب للأيديولوجيا، فينقلب الوعي، وتغدو فعالية الذات أقرب إلى انفعاليتها، ويصير المعنى حاضرًا وغائبًا في الوقت ذاته.

أيديولوجيا الخطاب في الفضاء المعلوماتي

يتصف الخطاب في الفضاء المعلوماتي بصفتين أساسيتين: الانفتاح والبساطة التي تخفي التعقيد، والحمل النحوي المفرط، وهما صفتان تعكسان في نظر المدرسة النقدية الألمانية حقيقة انغلاق الخطاب العميق. ويترتب عن انغلاق الخطاب، كما رأى ماركوز، أثران، الأثر **الأول** هو تغيُّر دقيق في الطريقة التي نتكلم بها على الأشياء، وخصوصًا في المجال العام، حيث تتم إزالة تدريجية للبُعد النقدي في استخدام اللغة(٦١)، لأنه لم يعد ثمة حيز يمكن فيه لمستقبلي الرسائل أن «يفكروا» في بدائل ويتخذوا موقفًا نقديًا حيال الأشياء، فالألفاظ والمنطوقات تلتحم معًا في بنية لا تقبل الانقسام ولا التغير، وتطغى على عقل القارئ ببراءتها الطبيعية ومباشرتها، ولا تترك له مجالًا للتمييز بين عناصرها أو تطوير فكر نقدي، لأن الرزمة كلها إنما تتحرك كوحدة واحدة مختومة، ومصنَّفة(٦٢).

الأثر **الثاني** هو تمرير معان متناقضة تمامًا، من قبيل المعنى وضده، أو الحقيقة واللاحقيقة(٦٣). ويتوقع ماركوز أن يُحدث استخدام اللغة المختصرة المستمدة من عالم التجارة والدعاية استجابات وردود

(٦٠) بودريار، **الفكر الجذري**، ص ٤٩-٥١.

(٦١) إن لغة الدعاية المستبدة غدت على نحو متزايد معيار الخطاب الشعبي عمومًا، وأغرقت قضايا الشأن العام في لغة التجارة، على صورة ما يدعى اليوم سياسات المقتطفات الإعلامية (Sound -byte) وتعليقات خبراء الدعاية (Spin-doctor). ينطبق هذا الحكم حتى على الخطاب الإعلامي والكيانات النصية في الفضاء المعلوماتي، وخاصة عندما تكون غاية هذه الخطابات اقتصادية وتجارية وسياسية، على الرغم من كون ماركوز يتحدث عن الخطاب الدعائي. انظر: آلن هاو، **النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت**، ترجمة ثائر ديب (القاهرة: دار العين للنشر؛ الإسكندرية: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠)، ص ١٢٨- ١٢٩.

(٦٢) يرى بيتر ووماك أن **الإعلانات وأساليب الكتابة الواثقة من نفسها** تتصف، على الرغم من إبهامها - مقتفيًا في ذلك رؤية ماركوز - بسمتين محددتين: **أولاهما** هي ما يسميّها «الاكتظاظ» الذي يسعى، كما في أي إعلان، إلى الطغيان والسيطرة. والسمة **الثانية** هي وجود وفرة لأفعال «الأنا الأعلى»، تلك الأفعال التي تفيض بكثير ممّا فيه خير الجميع. انظر: المصدر نفسه، ص ١٢٨- ١٢٩.

(٦٣) مثل تمرير أفكار «إلقاء القنابل بدقة بالغة» أو وصف رونالد ريغان للصواريخ البالستية داخل أوروبا بأنها «المحافظة على السلام».

أفعال آلية لدى البشر(٦٤). لقد أصبح الأسلوب التجاري هو أسلوب التعامل مع كل القضايا والأمور، ويشمل هذا الأسلوب رسائل ترسل عبر «بيتّات» (Bits) في ثوان عدة، تجنب المناقشات المفصلة أو المعقدة(٦٥).

هكذا، يتخفى الخطاب في الفضاء المعلوماتي وراء أيديولوجية التبسيط والتسطيح واكتظاظ المعنى وانغلاقية الجملة والاستناد إلى المرجعيات الأخلاقية الكبرى، لإنكار القارئ / المؤلف حقه في النقد، وإسقاطه في **سلطة النقر** (Clic) على الأيقونات والعلامات، واتباع مساراتها الوهمية الافتراضية اللامتناهية، إلى درجة أننا كثيرًا ما ننقر ونحن في خضم عملية الإبحار من دون الالتفات إلى المحتوى الذي يطل علينا من «النوافذ» المحذرة، لأننا وقعنا في استعباد ما يخفيه التتالي غير المنقطع من الصور المسترسلة والنصوص الثاوية المختلفة، والتي لا نتخذ منها أي مسافة نقدية.

تؤدي سرعة الانتقال بين صفحات «الويب» المختلفة إلى تقادم «الأحداث» والبيانات بسرعة مضاعفة، وإلى تناقص مطرد لعُمر المعرفة التي تتضمنها، الأمر الذي يؤكد أن شدة أيض المعرفة في تزايد(٦٦). لكن هذا التسارع في الأيض يقابله المستخدم بالمزيد من **الإبحار التسكعي والإدراك الانفلاتي**، حيث يتحول فرط المعلومات إلى بحر تيه وضياع، نسقط فيه برغبتنا، وتستعبدنا سلطة تشعبه الفائق. وتمارس هذه السلَطة عمومًا، في شكل سلطة رمزية لينة، لا تبدي أي مظهر من مظاهر العنف والإرغام، وإنما يقع تواطؤ متبادل بين المتسلِّط والمتسلَّط عليهم، بل تصير السلطة في بعض اللحظات مطلبًا نفسيًا وغاية وجودية، يتحقق معها الارتياح النفسي، والطمأنينة الأنطولوجية، والحرية الماهوية. فلنراقب حالتنا النفسية، كما يقول وولتون: «عندما ننفصل عن حاسوبنا أو عن هاتفنا الجوال لأكثر من يومين، لا يمكن تصور ذلك، وكثير منا سيصاب بإعياء في مثل هذه الحالة»(٦٧)، بل سيصاب بقلق وجودي ماهوي، حيث يتحدد الوجود الإنساني بامتلاك تكنولوجيا الاتصال، والربط الدائم مع شبكة «الويب»، وخارج هذا التحديد الوجودي الماهوي يشعر الإنسان بالتيه والضياع في اللحظة التي ينفصل عنها. لقد أضحى تحديد الإنسان بكونه كائنًا عاقلًا وناطقًا، تحديدًا اختزاليًا؛ فهو، إضافة إلى كونه عاقلًا وناطقًا... كائن اتصالي بامتياز في الفترة الراهنة. وإذا كانت الماهية الاتصالية تتعين اليوم كماهية ملازمة للذات الإنسانية في حال ارتباطها وإدامة اتصالها، وتعبّر عن الاندماج في السياق العالمي المعولم، والحضور الفاعل، والوجود المتسارع، فإن «التقنية التهمت أبناءها، سيما وأن ما نُؤْثِره في هذه التقنية هي السرعة والكفاءات والتفاعلية ومشاعر الحرية التي تتولد عنها، وكلها بعيدة كل البُعد عن إدراك ما تكتنفه من إدمان...»(٦٨).

بالعودة إلى أيديولوجيا التقنية في ميدان التواصل، نرى أن الخروج منها يعني الخروج من التقانوية، أي إن التقدم التقني لم يعد مرادفًا للتقدم في التواصل، كما إن الإعلام لم يعد يعني التواصل لأن الوجود

(٦٤) هاو، ص ١٢٧ – ١٢٨.
(٦٥) أندريا بريس وبروس ويليامز، **البيئة الإعلامية الجديدة**، ترجمة شويكار زكي (القاهرة: دار الفجر، ٢٠١٢)، ص ٢٧–٢٨.
(٦٦) ألفين توفلر، **تحول السلطة: المعرفة والثروة والعنف على أعتاب القرن الحادي والعشرين**، ترجمة لبنى الريدي (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦)، ج ٢، ص ٢٣٣.
(٦٧) دومينيك وولتون، **الإعلام ليس تواصلًا** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٢)، ص ٤٦.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ٤٧ – ٤٨.

الكلي للتقنيات التهم كل روح نقدية بحيث أصبح التواصل من غير تقنية أمرًا مستحيلًا بالنسبة إلى كثيرين [٦٩]. وتتغذى الأيديولوجيا التقنية العلمية عند هايدغر من العمل المستمر على تغييب التأمل لدى الإنسان المعاصر بسبب الانبهار أمام التقدم الباهر والفاتن للتكنولوجيا الجديدة[٧٠]. لذلك، يرى هايدغر أن «التقنية في كينونتها شيء لا يستطيع الإنسان التحكم فيه»[٧١]. وإلى جانب ذلك، استطاعت الأيديولوجيا التقنية – في نظر هابرماس – أن توجد مصالح في العالم المعيش مرتبطة بوجودها بين جميع الطبقات والشرائح المختلفة، بل إنها اخترقت حدَود الجغرافيا والأمم وجميع حدود الطبقات والدول وحدود الأديان والمعتقدات والأيديولوجيات[٧٢].

بعد هذا القران الأبدي بين التقنية والأيديولوجيا، هل نوافق ألبير كامي في تعبيره عن «**نهاية الأيديولوجيا**» كما أطلقه في كتاباته الروائية منذ سنة ١٩٤٦؟[٧٣] .

لا شك أن العصر الجديد الذي يدخله الإنسان المعاصر مع استحكام تكنولوجيا المعلومات والافتراضي يُنذر بتوظيف جديد للأيديولوجيا، نصطلح عليه بالأيديولوجيا الافتراضية، كي يروج للفكر والثقافة الغربية، ويفرض هيمنة الآلة والحاسوب والمعلومات وتوجيهها إلكترونيًا لتسيير الحضارة الإنسانية والهيمنة عليها. لذلك، فإن الحديث عن نهاية الأيديولوجيا لا يستقيم وديناميكية المجتمعات المستمرة. ونظن أن استحكام الأيديولوجيا بلغ درجة «الحتمية الأيديولوجية» التي يمكن اعتبارها من أهم الآفات التي تهدد الكيان المعلوماتي والتواصل الافتراضي. لذلك، فإن السؤال الأكثر أهمية عند التعامل مع التكنولوجيا الجديدة، وخاصة تكنولوجيا الافتراضي، يدور حول من يتحكم فيها، ومن يمسك بها ويملكها ويديرها ويستثمرها، ضمن شركات عملاقة عابرة للقارات. إن تكنولوجيا الاتصال الكلاسيكية لم تُبَرَّأ قط من تهمة الأيديولوجي، **لكن، هل تنجو تكنولوجيا الاتصال التفاعلية القائمة على التغذية الراجعة من هذه التهمة؟**

يعتقد عبد السلام بنعبد العالي أن الوسائط الجديدة التي تقوم على مفهوم التبادل لا تتيح للأفراد تلقّي الأفكار وتشرّب الآراء فقط، وإنما تتيح أيضًا إبداعها، أو على الأقل المساهمة في ذلك الإبداع، وإن يكن على شكل استنكار وتحفظ، أو إثارة للحماسة والمساهمة في النشر...[٧٤]. لقد فتحت تقنيات التواصل الجديدة الواقع على ممكنات، وأدخلت عليه شيئًا من النفي، وهو نفي مغاير للسلب الجدلي الذي قامت عليه الأيديولوجيات الثورية في ما قبل. لكن، على الرغم من ذلك، يفتح الواقع على ممكنات حتى وإن لم يقابله بما ينبغي أن يكون[٧٥]،فهل نُؤمن بأن تكنولوجيا الاتصال الجديد عالم ممكن للإبداع والحماسة والفعل الواعي من قِبل الذات؟

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٧١-٧٢.
(٧٠) حسن مصدق، **النظرية النقدية التواصلية: يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت** (الدار البيضاء: المركز الثقافي المغربي، ٢٠٠٥)، ص ١٠٠.
(٧١) أبو النور حمدي أبو النور حسن، **يورجين هابرماس: الأخلاق والتواصل**، المكتبة الفلسفية (بيروت : دار التنوير، ٢٠١٢)، ص٤٧.
(٧٢) انظر: مصدق، ص ١٠٧، وهابرماس، ص ٢٩-٣٠.
(٧٣) راسل جاكوبي، **نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة**، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة؛ ٢٦٩ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١)، ص ١٣ – ١٤.
(٧٤) بنعبد العالي، **الفلسفة فنًا للعيش**، ص ٤٤.
(٧٥) المصدر نفسه، ص ٤٥.

لا أظن أن هذا الفضاء الجديد خال من الفعل الأيديولوجي الذي غايته التطابق والانسجام ومحو الاختلافات، وإنما هو فضاء استُبدلت فيه أيديولوجيا الهيمنة والرقابة بفعل آخر أكثر قابلية للتكيف مع واقع المجتمعات الشفافة؛ فمما لا شك فيه هو أن التحول الجديد الذي طرأ خلال العقود الأخيرة، أدى إلى بروز الأيديولوجيا الناعمة واستحكامها، والتي تتمثل في تلك الجرعات اليومية، بل اللحظية، التي تبثها تكنولوجيا الاتصال الكلاسيكية والجديدة على المستوى العالمي، وتتغلغل إلى عقول المشاهدين والقراء والمستمعين والمستخدمين، وتنساب بهدوء وبلا ضجيج (٧٦).

لقد أضحت الأيديولوجيا المعلوماتية أكثر فعالية وقوة، وتزايدت سلطتها، وتحولت من فعل قائم على الهيمنة والسيطرة المادية المباشرة إلى فعل رمزي ناعم ولطيف ومتقبل، بل إلى مطلب يسعى الإنسان إليه وهو راض عنه. إنه لا يستطع التملص من نداء الاتصال وغوايته والغوص في طبقات «الويب»، والنشوة التي يحصل عليها يوميًا، وإن عن بُعد، جرّاء ولوجه المواقع الاجتماعية والمنتديات والدردشة... لا يستطيع التخلي عنها، وإذا ما انقطع عنها، فسرعان ما يعود إليها مرة أخرى.

حضور الذات وغيابها في الفضاء المعلوماتي

عرف مفهوم الذات منذ سبعينيات القرن الماضي تحولات جذرية بتأثير من البنيوية وما بعد البنيوية والتحليل النفسي، حيث خُلعت فكرة المركزية عنها، واعتُبرت أثرًا من آثار اللغة ولعب الخطابات وتفاعلاتها، وطريقة من طرائق الكلام، وأشكال التمثيل الرمزي(٧٧)، واعتُبرت أيضًا أثرًا من آثار الفضاء الافتراضي وتكنولوجيا المعلومات.

إن النظر إلى الذات الإنسانية كذات متشظية العناصر ومتداخلة السمات مع غيرها، كما تتصورها فلسفة ما بعد الحداثة، سيتحول بعد الطفرة المعلوماتية وبروز التفاعلية إلى نظر إلى ذات تسعى إلى تصور ذاتها في ذوات الآخرين، من خلال الإحساس بقيمة العيش المشترك بآماله وهمومه. ويدفع هذا الإحساس المتنامي بفعل التقارب المكاني والزماني إلى تجاوز مقولات اجتماعية كلاسيكية عدة. ويبدو أن التكنولوجيا الحديثة، خاصة شبكة الإنترنت بطرق تبادلها واتصالاتها، وكذا الهواتف النقالة، تساهم بفعالية في «رفع» النشاط الإنساني في مختلف المجالات، والسمة الأساسية التي تتصف بها الإنترنت هي أنها تمنح الجميع حق الكلام بطرق شتى(٧٨).

إن الانخراط الناتج من التفاعل مع التجارب المتوسطة عبر هذه التكنولوجيا بجميع بيئاتها الافتراضية والاتصالية، لا بد له من تجاوز الأحكام المتسرعة التي ترى في الجمهور المستخدم مجرد كيانات سلبية تنحصر مهمتها في فك مضمون الرسائل الاتصالية، وبناء المعنى الجاهز واستيعابه، بل لا بد من النظر إلى هذه التكنولوجيا الجديدة باعتبارها تفاعلًا مستمرًا مع نشاطنا، لكن من دون السقوط في فخ الحتمية التكنولوجية التطورية التي ترسم مسبقًا معالم الفعل الإنساني وتشترطه.

---

(٧٦) بورديو، ص ٢٤، مقدمة المترجم.

(٧٧) هاو، ص ٢١٨.

(78) Véronique Kleck, *Numérique et Cie: Sociétés en réseaux et gouvernance*, préface de Manuel Castells, DD: essai; 158 (Paris: C. L. Mayer, 2007), p. 107.

لقد حققت تكنولوجيا الإنترنت، بمختلف مكوناتها وممارساتها، تفاعل الفرد مع الجماعات. وبالتدريج، سيكون هناك الإنسان/ الجماعة؛ ذلك أن الإنسان الذي يعيش مع جماعته في أغلب أوقاته اليومية، يتجسد في الوقت ذاته ضمن جماعات متزامنة متشابكة بشتى أنواع الاتصال المتقدم، الأمر الذي ينتج منه التغيير الكبير في مختلف الأوساط الاجتماعية الأخرى(٧٩). ومع ذلك، فإن عددًا من الباحثين يشككون في هذه النزعة اليوتوبية، لأن من السذاجة أن يُزعَم أن التفاعلات عبر الشبكة المعلوماتية يمكن أن تعيد بناء ذات متحررة من الجسد المادي في ضرب من العوالم الموازية للعالم الحقيقي(٨٠).

يذهب عبد السلام بنعبد العالي إلى أن هناك علاقة جديدة تكرسها تقنيات التواصل الجديدة بين الفرد ونفسه، بينه وبين ماضيه، بينه وبين اللغة، لكن أساسًا بينه وبين الآخرين. هذا ما جعل البعض يمتنع عن وصف ما يتولد من علائق عبر المواقع التي يقال عنها أنها مواقع اجتماعية، بأنها بالفعل علائق اجتماعية، وبالأحرى أن تكون روابط وصداقات؛ فالفضاء الرقمي فضاء تواصل شبكي، وهو ككل الشبكات نسيج، إلّا أنه نسيج مبعثر، أو على الأقل كثير الخيوط ومتشعبها، وهذا يعود إلى طبيعته، ولكن يعود أيضًا إلى انفتاحه اللامتناهي(٨١). إلى جانب ذلك، فإن الانطباع الأساسي الذي نخرج به ونحن نتأمل مجتمعاتنا الحالية هو الحكم عليها بأنها مجتمعات اتصالية، خاصة مع هذا الكم الهائل من المعلومات. ولكن ينتابنا في الوقت نفسه شعور آخر بعدم التواصل؛ فنحن ندخل في الدردشة مع أحد المحاورين الافتراضيين، ولكننا لا ندخل في حوار مع أقرب جيراننا، كما يمكن لنا أن نرسل رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى زميل في الفضاء المعلوماتي بدل الذهاب إليه. لذلك، يرى دومنيك والتون أن هذا الانعزال التفاعلي وهذه الوفرة المعلوماتية لا يكفيان لتحقيق التواصل؛ لقد «أصبحت المعلومات وفيرة، والتواصل نادر»(٨٢). وإلى الحكم نفسه اتجه فيليب بريتون عندما تحدث عن كون المجتمعات المتطورة هي مجتمعات اتصالية بشدة، ولكنها قليلة التعارف(٨٣).

أضحى التواصل الحالي شبيهًا بـ«التواصل الآلي»(٨٤)، بلا ذوات، ولا غاية له سوى التواصل نفسه. وقد أدت حوسبة الاتصال ورقمنته إلى تسليع العلاقات الإنسانية، وسلطوية الصناعة الثقافة، واعتبارها قصفًا مستمرًا وتنويمًا للعقول وإسكاتًا للجماهير بوحشية في مجتمع، حيث جرى تصميم الاتصالات على أنها «عالم للموضة المنظمة»(٨٥).

وبات من المؤكد أن تكنولوجيا الاتصال تدفع الذات إلى عالم جديد، وتقذف به داخل عالم افتراضي متشعب ومعولم وكوني، وتنغمس فيه إلى درجة الاختفاء والتيه والاستعباد بفعل قوة الارتباط والوصول

(٧٩) رحومة، ص ٢٢٢.

(٨٠) من هؤلاء جون غراي: John Gray, *Endgames: Questions in Late Modern Political Thought* (Malden, Mass: Polity Press, 1997), p.120.
نقلًا عن: توملينسون، ص ٢٧٤.

(٨١) بنعبد العالي، **الفلسفة فنًا للعيش**، ص ٤٥.

(٨٢) وولتون، ص ٢٠.

(83) Philippe Breton, *L'Utopie de la communication: Le Mythe du village planétaire*, la découverte-poche; 29 (Paris: La Découverte, 1997), p. 12.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(85) Armand Mattelart, *L'Invention de la communication*, la découverte-poche. Sciences humaines et sociales (Paris: la Découverte, 1997), p. 11.

الدائم، لكن يمكن لهذا الفضاء أن يفتح آفاقًا جديدة، للذات عندما تستثمر تلك الإمكانات الهائلة لخلق ذات علائقية منفتحة على الآخرين، ومتشبثة بواقعها، لتعمل على تغييره والدفع به.

خاتمة

نود التشديد هنا على كون منطق الخطاب في الفضاء المعلوماتي يرجع في آليات اشتغاله إلى منطق الفضاء المعلوماتي ذاته، حيث إن الآليات التي يشتغل بها، والتي تطغى عليها صفة التعقيد المتجلية في اللاخطية والانعكاسية والتفاعلية والديناميكية والتعددية، هي نفسها ما يحكم منطق سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي. لذلك، ترتكز سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي على منطق اللاخطية واللاتعين واللانهائية، من خلال قلب مقامات السلطة ومسح مسرحها، لتغدو صيرورة بلا بداية محددة ولا نهاية حتمية، وإنما معطى قابل للتشكل الدائم والمستمر، وكيان محايث وليس متعاليًا على آليات اشتغال الفضاء المعلوماتي. وهي في إطار اشتغالها المستمر ترتكز على التحولات التكنولوجية المتسارعة التي عرفتها مجالات الاتصال والإعلام، وما عرفته من رقمنة وحوسبة وافتراضية وتفاعلية وتشبيك، وخصوصية الكيانات الرقمية التي تستوطنه، والتي تتمثّل في فعالية النص الفائق والشبكي وما يكتنفه من نصوص ثاوية عميقة، وما يحكمه من ترابط للترابط، وسلطة القارئ/ المؤلف وما عرفه من تحولات، خاصة انتقاله من حال السلبية في الاتصال الأحادي إلى حال الفاعلية والمشاركة في التواصل التفاعلي. لكن الإمكانات الهائلة التي يستوعبها الفضاء المعلوماتي لن تُحمل في الغالب إلّا على فعالية واهمة، وقدرة على الإبداع واهنة؛ إذ إن آليات سلطة الخطاب في الفضاء المعلوماتي تقوم على الدمج بين المتضادات والجمع بينها في بوتقة واحدة، حيث لا يمكن التمييز بينها، ولا الفصل بين الأصل ونسخته، ولا بين الواقع وفرط الواقع، والمعنى وأيديولوجية المعنى. إن القدرة على تعويم المعنى وغياب الذات وحضورها وقَلب الواقع وتزييف الحقيقة، هي المآلات التي تحكم منطق فعل الخطاب في الفضاء الافتراضي، وفي عمق هذه المآلات تنتشي الذات بالاتصال، وتَسعد بمواصلة اللاحق، وتسقط في سلطة الإبحار.